الحياة السياسية في نيابة الجزائر إبان عصر الدايات
ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الأتراك
(في مطلع القرن التاسع عشر)

الغالي الغربي

مقدمة :

استهل القرن التاسع عشر باندلاع اكبر واخطر ثورة شعبية على الاتراك منذ مجيئهم الى نيابة الجزائر ، الا وهي ثورة الطريقة الدرقاوية ، احدى فروع الطريقة الشاذلية ، وقد تزامن انتشار لهيب هذه الثورة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات ، لهذا كان تهديدها خطيرا وكبيرا ، مما جعل رد فعل الاتراك عليها عنيفا وقاسيا ، خاصة اذ عرفنا ان اتباع هذه الطريقة لم يدخروا وسعا بمهاجمتهم لاول مرة في عقر دارهم وعلى مختلف الجبهات ، ولم يستطيعوا القضاء عليها ، رغم الامكانات المادية التي جندوها الا بعد مرور عشر سنوات على اندلاعها . وذلك بسبب اتساع المساحة التي غطتها ، ولا تختلف هذه الثورة عن الثورات السابقة التي قامت على الوجود التركي ، والتي تميزت بالجهوية والمحدودية ، بسبب قوة روح العصبية، باعتبار ان زعماءها كانوا رجال قبائل ، مما افقدها عنصر الشمولية وجعلها لا تشكل خطرا كبيرا على خلفاء خير الدين ، الذين أفلحوا في استغلال روح العصبية وزرع روح التنافر والخلاف بين القبائل ، واستطاعوا بذلك ان يحافظوا على أمنهم ووجودهم . لكن الشيء الجديد في هذه الثورة هو ان زعماءها وقادتها كانوا من رجال الطرق الصوفية الذين كانوا قبل هذا التاريخ حلفاء الاتراك وانصارهم ،

لهذا اتخذت هذه الثورة صفتها الشعبية الواسعة بمؤازرة هذه الشريحة الاجتماعية التي كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة من التاريخ.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي : ما الاسباب التي دفعت برجال الطرق الصوفية الى الانتقال من صف المدافعين عن الاتراك الى صف الرعية والدفاع عن مصالحها في وجه الحكام الاتراك ؟ قبل ان نجيب على هذا السؤال تجدر الاشارة الى ان الاتراك أستغلوا النفوذ السياسي والديني الذي كان يتمتع به رجال الطرق الصوفية في المجتمع ، فتقربوا منهم وأعتمدوا عليهم في بسط سيطرتهم على الجزائر ، وكسر شوكة القوى السياسية التي حاولت الوقوف في وجههم. وبذلك اصبح رجال الطرق الصوفية القوة الثانية بعد الاتراك ، مما جعل هؤلاء يمنحونهم الكثير من الامتيازات الاقتصادية وعلى راسها جباية الضرائب في كثير من مناطق النيابة ، بالاضافة الى تخصيص جزء من الارباح التي كانت تدرها القرصنة البحرية ، كما كانوا يستفيدون من الهدايا الاعتيادية في المناسبات الدينية والاعياد . ومن هذا المنطلق اسند لهم دور الوساطة بين الاهالي والحكومة التركية(١) .

ولكن هذه العلاقة الحميمة بين الطرفين لم تدم طويلا ، فظهرت بوادر التأزم بينهما منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بسبب التحول الاقتصادي الذي شهدته الجزائر والمرتبط بنضوب موارد القرصنة التي كان يعتمد عليها الاتراك في تدعيم نفوذهم وسيطرتهم فيها ، وبسبب خلو النيابة من موارد اقتصادية كافية لتلبية احتياجات الحكومة التركية المالية للمحافظة على استقرارها والحيلولة دون ثورة الجند ، ولم يجد الاتراك وسيلة لتوفير المال الا بمضاعفة الضرائب على الاهالي وتجريد الحملات العسكرية المتتالية لارغامهم على الدفع(٢) . وقد اثارت هذه الحملات حفيظة المرابطين الذين لم يستطيعوا أن يقفوا مكتوفي الايدي أمام الشكاوى المقدمة اليهم من ضحايا جشع البايات من الاهالي ، بالاضافة الى أن مصالح رجال الطرق الصوفية تضررت من جراء هذا التحول الاقتصادي فتقلصت امتيازاتهم السابقة ، وتغيرت نظرة الاتراك اليهم بعد التطور الذي شهدته الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في الناحية الغربية من النيابة ، والذي ترتب عليه تمتين العلاقات مع المغرب الاقصى .

فساد النظام التركي:

كانت نتيجة افتقار الاتراك لقاعدة شعبية تساندهم وتؤازرهم ، ان انطبعت نظرتهم للاهالي بالحيطة والحذر، والخوف من انفلات السلطة من بين ايديهم،واصبحت كل المناصب العالية والرتب القيمة مقصورة عليهم ، اما بقية طبقات المجتمع فكانت ذليلة . وحتى القوانين والتشريعات التي سنوها ، لم تكن عادلة بل مجحفة وقاسية(٣) .

ورغم ان الاتراك كان بامكانهم استغلالهم الحظوة التي يتمتعون بها لدى الاوساط الشعبيةفي بداية مجيئهم لكسبها الى جانبهم ، الا ان شيئا من هذا القبيل لم يحصل ، بل اقاموا بينهم وبين الشعب حاجزا من الوسطاء واعتبروا انفسهم دائما الاسياد وحكموا البلاد باستبداد مشابه لاستبداد امراء الجمهوريات الايطالية(٤) .

وحاول الاتراك الاعتماد على فكرة التضامن الاسلامي لترسيخ نفوذهم لدى مختلف الاوساط الشعبية ، بالتقرب الى المرابطين وشيوخ الزوايا ، ومصاهرتهم ومنحهم الامتيازات ، الا انهم اخفقوا في خلق اطار طبيعي للاتصال بالرعية بهذه الوسائل ، وسرعان ما شكلوا ارستقراطية جديدة ذات نظرة مغلقة مبنية على أصول عنصرية، احتكرت وحدها السلطتين السياسية والاقتصادية(٥) .

وقد تفسر هذه السطحية بعجز الدولة بانظمتها وأدواتها عن بسط حكمها ، لان هذه الادوات والانظمة في واقع الامر كانت أدوات حرب اكثر منها ادوات حكم(٦) . ولنا في الشعر الشعبي شواهد كثيرة تدل على المعاناة من الفسادوالضغط الذين كانامسلطين على السكان من جراء فساد نظام الاتراك ، كقول احدهم :

عاتوا عتوا على الخلق وجاروا   فكانوا اكثر العباد وباروا

فرفع الكل الاكف ودعوا   بما به اجاب الله ورجوا (٧)

اما الزياني ، وهو من المؤرخين المقربين للسلطة التركية ، فيقول عنهم « .. واعلم ان الاتراك ، لما تمهد لهم الملك بالجزائر ، كثر ظلمهم وفسادهم ، بحيث لا يليق ان يذكر ما كانوا منه من الظلم والمناكر وتواتر ذلك على الالسنة بغاية التواتر ، فاشتغلت العلماء من ذلك في نظمهم ، وسألت الناس ان يزيل عنهم ما حل من ظلمهم .. »(٨) .

من خلال هذه النظرة الموجزة نلاحظ ان النظام التركي كان منذ بدايته يسير بسرعة الى الانهيار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، لانه اعتمدفي اساسه على القوة العسكرية وحكام لا تربطهم اية روابط طبيعية بالبلد والسكان ، وهذا مادفعهم لان يتجاوزوا حدود سلطتهم القانونية « ويرتكبوا الفضائح ويمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والاعيان »(٩) .

وقد وصل فساد النظام التركي الى اقصاه في عهد الدايات (١٦٧١ — ١٨٣٠) وهي الفترة السياسية التي اشتدت فيها حدة الثورات الشعبية على الوجود التركي في نيابة الجزائر ، وتجسدت اول ظاهرة من ظواهر الفساد في هذا النظام بانحطاط سوية الدايات الاجتماعية . ونستدل على ذلك من قول احدهم وهو يخاطب احد الدبلوماسيين الفرنسيين بقوله « .. انا رئيس عصابة من السراق ، ومهنتي هي ان

أخذ وليس ان اعطي . . »(١٠) . فهدف هؤلاء الدايات كان الاستبداد بالسلطة وجمع الاموال ، وليس الرقي والازدهار الحضاري ، لان غالبيتهم من بيئات منحطة في الاناضول ، توصلوا لرتبة الداي بعد ان مارسوا عدة اعمال ووظائف بسيطة فيمدينة الجزائر ، فمنهم من كان اسكافيا او حمالا او حارسا او كناسا(١١) . ووصلوا الى السلطة في ظروف غير طبيعية ، منها على سبيل المثال دعم اغنياء اليهود (بوشناخ) . أما الظاهرة الثانية من ظواهر الفساد فهي الاسراف والتبذير والرشوة ، وهذه الصفة الذميمة جعلت الكثير من الدايات لا يتورعون منبيع ذممهم لليهود والاجانبمنالاوربيين مقابل الكماليات البسيطة(١٢) . وبذلك يكون الدايات قد تركوا مقاليد أمور الدولة وشؤونها الى مجموعة من الضباط والموظفين واليهود والاجانبينهبون خيرات البلاد وثرواتها(١٣) . فتحولت مهمة حكومتهم الى ملء الخزينة العامة بالاموال لتنتقل فيما بعد الى حاشيتهم لتدعيم النظام والمحافظة عليه ، حتى ان النيابة على تعبير بن شنهو « اصبحت في عهد الدايات عبارة عن قطعة من الحلوى كل موظف يأخذ منها حسب ما يخوله منصبه . . »(١٤) .

ولم يبذل الدايات جهدا في علاقتهم مع سكان النيابة نحو الاحسن والامثل ،فلم تكن تربطهم بالبلد أية أواصر أو روابط من شأنها أن تجعلهم حريصين على سمعة النيابة سوى الجانب المالي ، وكان هذا احد اسباب الثورة .

السياسة العربية :

اخذت حكومة الاتراك ،في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر، تفقد بالتدريج صفتها البحرية التي اتسمت بها منذ تاريخ تأسيسها ، ليزداد ارتباطها واهتمامها بالارض ، أي بالموارد الداخلية . لكن هذا الاهتمام بالشؤون الداخلية للنيابة كانت نتائجه وخيمة على السكان وعلى مستقبل الاتراك في الجزائر ، لان هذا التحول السريع من سياسة الى سياسة لم يعتمد على خطة مدروسة مسبقا تمتص الردود الشعبية عليها ، باعتباره يمس اوسع طبقة اجتماعية هي طبقةالفلاحين التي كانت تشكل الاغلبية والعمود الفقري الذي يعتمد عليه اقتصاد النيابة . هذا بالاضافة الى ان دور الاتراك في تطوير البنية الاقتصادية لنيابة الجزائر كان سلبيا ، فلم يسهموا اسهاما محسوسا وجديا في انفاق رؤوس الاموال التي جمعوهامن القرصنة في تحسين احوال البلاد ورفع مستواها الاقتصادي، يكون كفيلا بتخفيف الاثارالسلبية التي تركها هذا التحول ، لهذا بقيت الجزائر تحتل مرتبة ثانوية اذا ما قورنتبتونس او طرابلس او بعض البلاد المشرقية(١٥) .

ورغم تنوع الثروات والموارد الطبيعية ، فان الحياة الاقتصادية في بداية القرن التاسع عشر كانت متدهورة وتعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها

وازدهارها . وياتي على رأس هذه العوائق طبيعة النظام التركي ذي الاصول الاقطاعية ، فضلا عن الاساليب العتيقة المستخدمة في الميدان الزراعي والصناعي والتجاري ، واحتكار الحكومة لهذه الانشطة(١٦) ، والحيلولة دون نشوء بورجوازية وطنية تقوم بتنشيط الحياة الاقتصادية والاستعاضة عنها بالتجار الاجانب ، بخاصة من اليهود والفرنسيين ، الذين اصبحوا يتصرفون في النيابة وكأنها مستعمرة(١٧) . وعامل اخر كان وراء تدهور الحياة الاقتصادية وهو موجات الاوبئة والامراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد في فترات متلاحقة تكاد تكون غير منقطعة .

امام هذه الاوضاع الاقتصادية المتدهورة راح الدايات يطالبون البايات بموادر اقتصادية بديلة لتغطية النقص المفاجىء الذي سببه ضعف القرصنة ، فما كان من هؤلاء الا مضاعفة استغلالهم لمناطقهم بدقة وبمضاعفة الحملات العسكرية على القبائل لارغامها على دفع الضرائب لادارة حكومة الدايات(١٨) . ويجمع المؤرخون ، ان التوسع الذي شهدته النيابة ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، في تنويع الضرائب دون الاعتماد على مصادر اقتصادية اخرى ، ادى الى جعل الحكومة التركية اداة استهلاك تعيش على مايدره عليها الجهاز الضريبي ، دون السعي الى تنمية مرافق الدولة الاقتصادية ، فكل ما كانت تنتجه النيابة من موارد يذهب بشكل مرتبات وجرايات للمؤسسة العسكرية وموظفيها . وكانت عملية جباية هذه الضرائب تتم تحت الضغط والارهاب في اغلب الاحيان ، مما دفع الحكام الاتراك الى تجهيز الحملات العسكرية(١٩) لتأديب الثوار وارغامهم على الدفع لدى اية بادرة مقاومة او تهرب من دفع المبالغ المالية المستحقة عليهم ، مما زاد في الهوة بين الطرفين .

واحست الفئات الاجتماعية المحرومة ، وعلى راسها الفلاحون ، أن كل مجهودتها موجهة الى خدمة الغير ، وتوفير الرفاهية للطبقة التركية دون التمتع باية حقوق مقابل ذلك ، فرفضت هذه الاجراءات الجديدة واعتبرتها تعسفا وجورا عليهاتستوجب محاربتــه .

لذلك يمكن اعتبار هذه الثورة ، كبقية الثورات ، رد فعل من جانب السكانعلى التصرفات الجائرة الناتجة عن الاجراءات المالية التي مارسها البايات والدايات . وكان لازدياد الضغط المالي على الارياف اثار وخيمة ، اذ ارهق كاهل الفلاحين بكثرة الضرائب ، وقد عبرت لنا شهادات المؤرخين المعاصرين والاشعار الشعبيةعنمدى ماكان يقاسيه ويعانيه الفرد الجزائري من جراء ثقل الضرائب ، وحرق المحاصيل الزراعية ونهب الاملاك ومصادرة قطعان الماشية(٢٠) .

وفي المنطقة الغربية ، وهي مركز رئيس للطرق الصوفية وبخاصة ذات الاصول المغربية ، كما كانت منطلقا لاخطر الثورات ضد الاتراك في الربع الاول من القرن التاسع

عشر (الدرقاوية والتيجانية) ، كان الوجود التركي قويا ممثلا بالحامية التركية والقولوغلى وقبائل المخزن ، وبالرغم من اساليب الاتراك التعسفية كان السكان يتحملون ذلك على مضض بسبب وجود الاسبان في وهران . ولكن تحرير وهران ١٧٩٢ ازال المبرر الرئيسي لهذا الوجود التركي الثقيل ولتحمل السكان لاذاه .

الدور المغربي :

لما عجز الاتراك عن قمع الثورة بعد أن لجؤوا الى جمع الوسائل لاخمادها ، خاطبوا ملك المغرب « مولاي سليمان » ، ورجوه ارسال شيخ الطريقة « مولاي العربي الدرقاوي » لتهدئة الثوار(٢١) . واعتمادا على الرسائل التي تبودلت بين شيخ الطريقة والسلطان المغربي ، نستنتج ذلك الدور الرئيسي الذي اضلع به هذا الامير في اثارة هذه الثورة ضد دايات الجزائر . ويظهر من هذه الرسائل ان السلطان كان على استعداد كامل للتدخل عسكريا في المنطقة الغربية من النيابة ، وذلك لتحقيق الاهداف التقليدية لسلاطين المغرب .

وحسب الرسائل نفسها ، يبدو ان الذي عاق السلطان عن تحقيق هذا الهدف كان الظروف الطبيعية وانه كان راضيا عن الخطوات التي قام بها الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ، وعلى رأسها البيعة التي كتبها سكان مدينة تلمسان للسلطان المغربي(٢٢) .

ورغم ما اوردناه عن تورط السلطان مولاي سليمان في هذه الثورة ، ينفي المؤرخون المغاربة تورط مولاي سليمان في احداث الثورة ومجرياتها ، ويجمعون على رأي واحد وهو ان السلطان ، لما قدم عليه الوفد الجزائري ليقدم له البيعة ، اقتصر دوره فقط على تحقيق المصالحة بين الرعية والاتراك ، وبذلك يكون قد سلك مسلكا هو ارفق بالجميع ، الاتراك والاهالي .

ولكن الاحداث التاريخية تؤيد ما ذهبنا اليه ، وهو تورطه في هذه الثورة وذلك ردا على تدخل الاتراك في احداث ثورتي « محمد بن عبد السلام » و « زينان في الريف »(٢٥) . الا ان هذا الموقف التايدي للثورة لم يستمر طويلا ، اذ ادرك السلطان انميزان القوى بدأ يتحول لصالح الاتراك بعد ان استطاعوا كسر الطوق الذي فرضه ابن الشريف على مدينة وهران . فأمام المنعطف الجديد الذي وصلت اليه الثورة ، والذي لم يكن واردافي حسابات السلطان، وبسبب ضعف المغرب الذي انهكته الحروب الاهلية في القرن الثامن عشر ، لم يجد السلطان مخرجا الا انكار رسوله الذي ارسله الى الثوار ، بل وسارع في ارسال رسول جديد الى مدينة تلمسان ، لا عادة الاوضاع الى ما كانت عليه سابقا ، وشجب تصرفات شيخه ومقدمه « ابن الشريف »(٢٦) .

كان سلاطين المغرب الاقصى حجر عثرة امام التوسع التركي في الناحية الغربية من النيابية ، وظل هذا دابهم حتى زوال حكم الاتراك في الجزائر . وعلى الرغم من ذلك حاول الاتراك عدة مرات خرق هذا السد المنيع ، الا انهم اخفقوا . وقد رفض المغاربة ، عند دخول الاتراك الى منطقة الشمال الافريقي ، ادعاءهم السيادة على العالم العربي والاسلامي . وقد بدا للمغرب في عهد بعض سلاطينه العظام ، طموح في ضم الجزائر وتونس وتحقيق امبراطورية الموحدين ، وهذا ما يشير اليه المؤرخ المغربي في كتابه (النفحة المسكية) بقوله : « والعثمانيون انما عملوا الامارة وقادوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو احق بها واهلها ، وهم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب . »(٢٧) .

ولتحقيق هذا الطموح السياسي ، اعتمدت سياسة المغرب داخل الاراضي على الطرق الصوفية . وكانت مراكزها تشكل خيطا يمتد من فاس الى تلمسان وتونس، مرورا بالواحات ، وكانت زوايا هذه الطرق على اتصال فيما بينها ، تنقل الاخبار الى داخل النيابة ، وآراء الشيوخ من فاس والرباط . وقد استغل المغاربة الهجمات الاوربية على النيابة ، والصراعات السياسية داخل النظام التركي ، لبسط سيادتهم على اجزاء منها ، لكن عدم قدرتهم على المواجهة العسكرية مع الجيش التركي جعلتهم لا يتمسكون طويلا بهذه المناطق .

لهذا اعتمد سلاطين المغرب سياسة الاقلال من هيبة النيابة والبحث عن حلفاء لابادتها ، ولما كان المغرب قد لعب دورا اساسيا وفعالا في ثورة الطريقة الدرقاوية ، بتشجيع الثائر ابن الشريف وكل المناهضين للاتراك من الجزائريين ، واعانتهم بالمال والسلاح ، فسنحاول ان نلخص هذا الدور بايجاز .

التعريف بابن الشريف : تزعم هذه الثورة في الناحية الغربية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي ، ويعود اصله الى قبيلة بربرية هي كسانة المقيمة على ضفاف وادي العبد في ضواحي سهل « غريس » القريب من مدينة معسكر . تعلم مبادىء اللغة العربية في مسقط راسه في قرية اولاد بالليل ، ثم التحق بزاوية القيطنة التابعة للطريقة القادرية ، التي كانت تحت امرة الشيخ محي الدين ، والد الامير عبد القادر الجزائري ، حيث نبث فيها مدة من الزمن ، وبعدها سافر الى زاوية بوبريح في المغرب الاقصى،وهناك اتصل بمولاي عبد الله محمد الدرقاوي ، الذي لقنه مبادىء الطريقة الدرقاوية واجازه فعاد الى قريته وفيها اسس زاوية لتلقين الناس اوراد الطريقة . ويظهر ان هذه المهمة قد اسندت اليه من طرف شيخه ، الذي عينه مقدما للطريقة في الناحية الغربية من النيابة(٢٧) .

لقي ابن الشريف التأييد الواسع من جميع القبائل الصحراوية التي صارت ،كما يقول احدهم « .. كلها شيعته تهدي اليه الهدايا وتعطي العطايا »(٢٨) . واثناء لقاءاته

مع مختلف القبائل كانت تشكو اليه ما يصيبها من ارهاق بسبب ما يفرضه عليها الاتراك من مغارم وضرائب ، فكان ابن الشريف « يمنيهم بالفرج القريب ». ويقال ، حسب الروايات المعاصرة التي رجعنا اليها ، ان ابن الشريف كان قد طرح فكرة اعلان الثورة على الاتراك في اول لقاء له مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي الذي استحسنها. ويظهر ان الشيخ كان على علم بالمضايقات التي كان يمارسها رجالات الحكومة التركية على تحركات افراد الطريقة الدرقاوية ، وعلى رأسهم مقدمها ابن الشريف ، الذي فر الى الجنوب بعيدا عن متابعات البايات وجواسيسهم . ومن هناك انتقل الى فاس حيث لقي شيخه في قرية بني زروال ، فاشتكى له مالحق به وبمريديه من جور الاتراك. وقد نقل الينا الزياني الحوار الذي دار بين الطرفين « ياسيدي ان بوطننا قوما يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الاسلام ، ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والاولياء، نسأل منك ان يكون هلاكهم على يدك لتستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد ، فقال له شيخه عليك بجهادهم وقتالهم ، وان الله ينصرك عليهم بكمالهم ..»(٢٩) .

مراحل الثورة :

استغرقت عملية الاستعداد وجمع اكبر عدد ممكن من الانصار مدة خمس سنوات (١٨٠٠ ــ ١٨٠٥) ، واستغل ابن الشريف فرصة هزيمة احدى الحملات التركية امام قبائل الانجاد ليعلن الثورة . وهذه الحادثة التاريخية التي يجمع المؤرخون على اعتبارها فتيل الثورة كانت اول هزيمة عسكرية تهزم فيها قبائل المخزن ، حلفاء الاتراك منذ زمن بعيد(٣٠) .

كانت اولى مراحل للثورة الاذن الذي اعطاه ابن الشريف لاتباعه بنهب اموال وممتلكات هذه القبائل وملاحقتهم اينما كانوا . وقد وصلت انباء انتصاراته الى وهران عاصمة البايليك ، فقام الباي مصطفى العجمي(١٨٠٥ / ١٨٠٩) ، بتجهيز جيش كبير واتجه به الى ابن الشريف ، الذي كان قد عسكر بجيشه على ضفاف وادي مينة(٣١) ، والتقى الطرفان بقرية فرطاسة ، وكان ذلك ربيع الاول ١٢١٩/١٨٠٥ ، حيث دارت اشرس معركة بين الجيش الانكشاري ، تعاضده قبائل المخزن ، والثوار. ودارت الدائرة على الجيش التركي وفر الباي بعد ان تفرق جيشه حتى قال احد المؤرخين المعاصرين يصف هذه المعركة ونتيجتها : « فأمسى الباي ومخزنه في نكد واصبح الدرقاوي واتباعه في رغد ..»(٣٢) .

وتتبع جيش الثوار الفلول المنسحبة من الجيش التركي حتى اسوار مدينة معسكر ، ولم ينتظر ابن الشريف وصول النجدات من مدينة وهران الى الجيش التركي الذي تحصن بالمدينة ، فقرر دخولها بالقوة ، ولم تصمد المدينة كثيرا فاستسلمت له.

جعل ابن الشريف مدينة معسكر مقرا لاقامته هو واسرته وقاعدةحربية لجيشه، ومنها راح يوجه نداءاته الى كل القبائل لتعلن الجهاد والحرب على الاتراك وادواتهم من قبائل المخزن ويهدد كل رافض لدعوته بالويل والثبور . كذلك دعا القبائل الى مبايعته قائلا لهم في احدى هذه النداءات : « انا نزعت عنكم ما كنتم فيه من اداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الاتراك واتباعهم ، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا . . » (٢٣) . وقد وجدت نداءاته هذه تجاوبا كبيرا من الرعية في الناحية الغربية والوسطى ، ولم يقتصر انضمام القبائل على الخاضعين لسيطرة الاتراك ، بل تعدى ذلك الى القبائل المخزنية حليفة الاتراك مثل قبيلة الحشم ، والزمالة والدواير (٢٤) .

وبسرعة فائقة امتد لهيب الثورة ليشمل كل القبائل الجزائرية الواقعة مابين مدينة مليانة (الوسط الجزائري) ووجدة على الحدود المغربية . وامام هذا المد السريع بدأت الحاميات التركية تندحر وانسحب اغلبها الى المدن الساحلية لتحتمي بأسوارها من الغضب الشعبي ، وانقطعت كل الاتصالات مع مدينة الجزائر ، ولم يبق الا البحر المنفذ الوحيد الذي يتم عن طريقه تموين مدينة وهران ، التي سارع ابن الشريف الى ضرب الحصار عليها(٢٥) .

يقول صاحب التحفة : « . . ان باشا الجزائر حاول تجهيز جيش بقيادة مستشاره علي اغا لنجدة المدينة المحاصرة ، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريقه والحقت به خسائر فادحة ومنعوه من المرور في بلادهم وكاد جيشه ان يهلك عن اخره بعد ان قطعت عليه القبائل ورود الماء لولا استنجاده باحد المرابطين في مدينة القطاف(٢٦) . كذلك سارت الامور في غير صالح الاتراك بعد انسحاب الحامية التركية من مدينة تلمسان ومحاصرة الكراغلة في قلعة المدينة ، مما جعل منها مدينة شبه مستقلة .

اسباب فشل الثورة :

تسببت عدة عوامل في فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية اشهر مع ان الظروف مواتية ، وخاصة بعد ان تم القضاء على اغلب الحاميات التركية وتشتت جيش الباي في معركة فرطاسة . من هذه العوامل قوة اسوار المدينة وعدم قدرة محاصريها من ايجاد منفذ للتسلل الى داخلها ، لقلة الوسائل وضعف العتاد ، ثم عدم تجاوب سكان المدينة مع دعوة ابن الشريف القيام ضد الاتراك رغم ان القوة التركية المدافعة عن المدينة كانت قليلة العدد(٢٧) . وهذا الاحجام الذي بدر من سكان المدينة وعدم تجاوبهم مع الثوار يرجع الى الاعمال التخريبية التي رافقت هذا الحصار والتي كان يرتبها جيش « ابن الشريف » تجاه

قبائل المخزن واملاكهم . وهذا ما قضى على التجاوب بين الثوار والطبقة الحضرية المقيمة في المدن وضواحيها .

وقد استغل الاتراك ، هذا الشرخ بين سكان الارياف وسكان المدن احسن استغلال بتأليب هؤلاء على أولئك . ولهذه الاعتبارات اخذ الاتراك شيئا فشيئا يسيطرون على الوضع لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على المراكز الثائرة الا في المدن الساحلية(٣٨) .

حدث هذا التحول لصالح الاتراك بعد ان عين داي الجزائر الباي محمد المقلش الذي رجح كفة الميزان لصالح الحكومة ، اذ رافقت هذا الباي قوة من الانكشارية قدرت بـ ١١٠٠ رجل (٣٩)، وبما ان الطريق البري كان مقطوعا فان هذه القوة من الجنود اتخذت البحر لدخول المدينة المحاصرة ، وكان اول اجراء قام به الباي الجديد هو فتح ابواب المدينة واعادة الحياة الطبيعية الى مجراها ، ثم التصدي للثوار .

ويظهر ان الملل والسأم قد تمكنا من معنويات الثوار فاثروا الانسحاب الى الداخل ، لتبدأ سلسلة طويلة من المعارك كلفت الجانب التركي الكثير وادخلت المنطقة في مرحلة من الفوضى السياسية والاقتصادية لم تنته الا بعد سقوط مدينة وهران بيد الفرنسيين . فبعد ان تحقق الاتراك بانه ليس هناك ادنى شك في مناصرة سلطان المغرب للثورة . عمد هذا الباي الى الوسائل الدبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة المغربية ، والى اشد أنواع القمع والارهاب ضد الثوار(٤٠) ، فعمل على التقرب الى القبائل ذات الصلة بالثورة والتي كانت تتمتع بنفوذ في المنطقة بمصاهرة قبيلة الحشم ، وكانت من الد اعداء الاتراك ، والدافع الذي دفعها الى الارتماء في احضان الاتراك والاتفاق معهم هو التخوف من القاعدة الشعبية المؤيدة للطريقة الدرقاوية ، التي بدأت تلقى تجاوبا شعبيا واسعا ،وخاصة اذ عرفنا ان هذه القبيلة تتزعمها الطريقة القادرية بقيادة الشيخ محي الدين والد الامير عبد القادر، والتي لا ترضى بمنافسة طريقة اخرى لها على القبائل . ويشير صاحب « التحفة » خلال تطرقه الى ابن الشريف الى الاختلاف الذي حدث بين ابن الشريف والشيخ محي الدين(١٤) .

لكن المصادر المحلية لا تشير الى ظهور صراع بين الطريقتين لاكتساب الانصار والمؤيدين ، الا انه يظهر ان شيخ الطريقة القادرية لم ينس الحادثة واراد الانتقام من ابن الشريف ، فأوعز الى قبيلته بالوقوف الى جانب الاتراك . والمعروف كذلك ان الطريقة القادرية كانت على علاقة طيبة بالاتراك منذ دخول هؤلاء الى الجزائر ، والذين استخدموها كمنافس للطريقة الشاذلية الموالية للمغرب . وبهذا تكون الدسيسة التركية قد لعبت دورها في زرع التفرقة بين الطرفين .

وكانت النتيجة ان الثوار بدأ يتراجعون عن المواقع التي كانوا قد احتلوها سابقا. وذلك بعد سلسلة كثيرة من المعارك والاصطدامات ، ومن اهم هذه المعارك معركة اولاد زائر التي خسر فيها الثوار ، حسب المصادر المحلية ، « ستمائة راس ، بعثها الباي كلها الى داي الجزائر »(٤٢) . وفي اثناء هذه الاحداث انتقل ابن الشريف الى قبيلة الاحرار في الجنوب ،الا انه لم يجد المساعدة من جانب هذه القبائل ، فانتقل الى مدينة الاغواط حيث دخل في مفاوضات مع رجال الطريقة التيجانية للقيام ثانية على الاتراك ، لكنه فشل في مسعاه . وما زالت الاسباب التي منعت رجال هذه الطريقة، من تلبية طلب ابن الشريف توحيد الجهود بينهما لاعلان الثورة غير واضحة ، رغم الضغوط التي كانت مسلطة على افراد الطريقة التيجانية من طرف رجال البايليك، وعلى راسها المغارم السنوية التي كانوا ملزمين بدفعها .

فكان ان انتقل ابن الشريف الى قبيلة بني يزناسن على الحدود المغربية ، ومن هناك توارى عن مسرح الاحداث السياسية .

وقد اختلفت المصادر المحلية والاجنبية حول تحديد تاريخ ومكان وفاة ابن الشريف ويتفق صاحب « أنيس الغريب والمسافر » وصاحب كتاب «دليل الحيران »، على ان المقام استقر به عند قبائل بني يزناسن ،وهناك«ترك الفضول لعدم طاقته»(٤٣) اما المؤرخ الفرنسي Degrammont فيؤكد من جانبه ان ابن الشريف لقي مصرعه اثناء محاولته استعادة مدينة معسكر للمرة الثانية سنة ١٨٠٦(٤٤) . اما السيدان Estharzy, Deneuve فيذكران ان ابن الشريف قد مات بوباء الطاعون في مدينة مسيردة ، لكن دون ذكر تاريخ الوفاة(٤٥) . وهذه الاختلافات في وجهات النظر بين هؤلاء المؤرخين مرجعها الغموض الذي احاط بالثورة الدرقاوية في تلك الفترة. والوحيد من المؤرخين الذي عارض فكرة موت ابن الشريف سنة ١٨٠٩ ، هو Noel ، الذي ذكر انه ظهر مرة ثانية سنة ١٨١٦ ، واثار القبائل الصحراوية ومن بينهم قبائل الاحرار واتجه بهم لمقاتلة الاتراك ، لكنه هزم وانسحب نهائيا الى واحة فقيق(٤٦) . وهذا ما ذهبت اليه احدى الوثائق التركية التي تبين ان الثورة استمرت حتى سنة١٨١٦ ، فهي تشير الى الخسائر التي تكبدتها العساكر التركية وتلح على الاستانة للاسراع بارسال النجدات العسكرية لمواجهة هذا الثائر(٤٧) .

في النهاية ، لابد لنا من التساؤل ؟ هل كانت ثورة الطريقة الدرقاوية في الناحية الغربية من النيابة مجرد محاولة سياسية قام بها سلاطين المغرب الاقصى ، العدو التقليدي لاتراك الجزائر ، بواسطة اعوانهم ، لاختبار مدى قوة النظام التركي المجاور لهم بعد ان فشلوا في مواجهته عسكريا ، فحاولوا ان يفجروه من الداخل باثارة الفتن والاضطرابات عن طريق اغراء ابن الشريف بواسطة شيخه مولاي العربي الدرقاوي

القيام بالثورة . وبالتالي ارغام الاتراك على الاعتراف بالحقوق التاريخية للمغرب في الجهة الغربية من النيابة..؟

لا ننفي ان الثورة استفادت من التأييد المعنوي والروحي من جهة المغرب ، لكن المد السريع للثورة الذي وصلت تأثيراته حتى ضواحي دار السلطان ، مقر الحكومة المركزية ، لايمكن ان يفسر فقط بهذا السبب ، بل بذلك الحقد والعداء الذي خلقتـه تناقضات النظام التركي في نفوس السكان تجاه الطبقة التركية المتسلطة التي تسومهم أنواع الاضطهادات والقهر والاستغلال ، بفرض الضرائب وتجريد الحملات العسكريـة على الريف الجزائري . لهذا وجد السكان في شخصية ابن الشريف ، وأمثالـه من الذين تزعموا ثورات القرن التاسع عشر ، متنفسا لهم ، يشكون اليهم مالحقهم مـن تعسف واستبداد هذه الطبقة وأدواتها الاخرى التي اغفلت شؤونهم الضرورية واهتمت بالركض وراء السلطة وجمع الاموال وتسببت في ضياع موارد واملاك السكان ، وهذا ما دفعهم الى الثورة ضد الاتراك .

ورغم ان هذه الثورات ، رفعت في اغلب الاحيان شعارات دينية وتسترت وراء مطالب قبلية ، الا انها في حقيقة امرها كانت تعبيرا صادقا عن سخط الرعية وعـدم رضاها على الاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في عهد الحكام الاتراك.



حصل الباحث على شهادة الماجستير في التاريخ برسالته ((الثورات الشعبية في الجزائر من اواخر القرن الثامن عشر حتى الاحتلال الفرنسي))، باشراف الدكتور محمد خير فارس .

مصادر ومراجع البحث :

(1) Ernest,M.,**L'Afriqne Septentrionale berbérie depuis les temps les plus recules jusqu'a la conquête Française,** t.I, Leroux, Paris 1891, P. 230.

(2) Boyer, P., **Contribution à l'étude de la politique réligieuse des Turcs dans la régence d'Alger,** XIV - XVI, p. 28

(٣) ويليام شالر : مذكرات ويليام شالر ـ قنصل امريكا ١٨١٦ ـ ١٨٤١ ، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٨٢ ، ص(٤٦-٤٧).

(4) Laugier de Tassy, **Histoire d'Alger etdu bonbardement de cette ville** en 1816, Pittan, Paris 1839 .

(٥) مفنية الازرق ، نشوء الطبقات في الجزائر ، ترجمة سمير كرم ، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٦

(٦) عزت عبد الكريم ، مقدمة من كتاب حوادث دمشق اليومية للبديري الحلاق ، لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٦ ص٢٧.

(٧) الزياني محمد بن يوسف ، دليل الحران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، وتحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٩ ، ص ٧٣.

(٨) من رسالة ارسلها محمد بن رايس العين الاندلسي الى الاستانة اوردها الشيخ البوعبدلي في مقدمة للكتاب السابق ، ص ٥٩ .

(٩) التميمي عبد الجليل ، العرب والاتراك في اطار الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد ١٧-١٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٩١ .

(10) Degrammont, H-D.,**Histoire d'Alger sous la domination Turque,** Lerou, 1887, P. 309.

(11) Benachanhou, A., **L'Etat Algérien en 1830,** S.N.E.D., Alger, (S-). p. 29.

(12) Commerce de barbarie, A.A.Marseille (S;I) , Article n, 1880, Objets commerce de barbarie presents au puissans du royaume d'Alger. (S.O), P. 29.

(13) Vatin, J. C. , « l'Algerie en 1830 » , **Revue Algérienne des sciences Juridiques , economiques et politiques,** vol. VII, n.14, 1970, p. 1943.

(14) Benachanhou, op. cit ., p. 29.

(15) Lespes, R.,**Alger (Etude de géographie et d'histoire Urbaines),** Paris, Alcan, Alger , p, 146.

(١٦) سلفاتور بونسو ، العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركي ، ترجمة ابو القاسم بن القومي ، مجلة الاصالة ، العدد ٤٨ ، ١٩٧٨ ، ص١١٨.

(١٧) Emérit, M ., la situation economique de la régence d'Alger 1830, in **Information historique,** 1952, t. II, p. 169.

(١٨) Roy, J.E., **Histoire de L'Algerie depuis les temps les plus reculés jusqu'a nos joure,** A.Maine Tour, 1864, P. 142.

(١٩) حول هذه الحملات انظر :

Federman et Aucapitaine , « Notice sur l'histoire de l'Administration du beylick de Titterie » **in Revue Africaine,** 1867, t. IX, pp. 291-293.

(٢٠) Emerit, M., « Les Aventures de thednat , » in**R.A.** 1948, p. 40.

(٢١) ابو القاسم الزياني ، الترجمان المغرب في دول المشرق والمغرب ، نشر جزء منه هنريهوادس ، المغرب ـ باريس ١٨٨٦ ، ص ١٠١ .

(٢٢) قال في هذه الرسالة ، وقررت ان لا اباشر فيها الا بعد فصل الشتاء لان الطرق في هذا الموسم تكون صعبة والاودية مرتفعة المستوى .. وفي الربيع القادم سوف اتي انا بنفسي باذن اللهمرفقا بعساكري الظافرة لمتابعة مشاريعي باذن الله ، وعليك باخبار سيدى عبد القادر .. بالالتحاق بي حينما يسمع بوصلي الى وجدة .

Drague, G., **Esquise d'histoire religieuse de Maroc,** Cahier de l'Afrique et de l'Asie, Peyonnet, Paris, p. 235.

(٢٣) يقول السلاوي عن هذه البيعة « ان سكان مدينة تلمسان فتحوا باب المدينة الى ابن الشريف وطائفته واخذ البيعة بها للسلطان ... وخطب به على منابرها ، ووجه وفده وهديته الى السلطان مع شيخه ابي عبد الله المذكور . الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٦ ، ص ١١٠ .

(٢٤) رد عليه السلطان « .. وصلتني رسالتك واسال الله ان يجازيك على افعالك الحسنة تجاه المسلمين الذين لا نرجوا لهم الا السلام والطمانينة .. وعندما تاني لزيارتي ، ساطلب رأيكفيما يجب اتخاذه وعمله في البلاد التي انت فيها ..» انظر الناصري ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢٥) الناصري ، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

Brosselard, Ch.,**Les khouans de la constitution des ordres religieuses,** Alger 1895, P. 227.

(٢٦) الناصري ـ الاستقصا . Drague, op. cit., P.254.

(٢٧) الناصري ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٢٨) الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٢٩) الزياني ابو القاسم ، المصدر السابق ٢٠٩ .

(٣٠) حسين خوجة ، درء الاعيان في اخبار مدينة وهران ، ترجمه ونشره السيد روسو في جريدة لومونتور الجيريان ١٨٥٥ ، رقم ١٣٩٥ ـ ١٣٩٨ .

(٣١) وادي مينا : واد ينبع من اقليم التجود وطوله ١٩٥ كم ، يمر بمدينة غليزان ويصببشمالها في نهر الشلف . وله فرع هووادي العبد يسير نحو الشمال ويلتقيبوادي مينا عند قرية فرطاسة.

(٣٢) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، ش.و.ن.ت. الجزائر ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .

(٣٣) حسين خوجة ، المصدر السابق . ص ١٢٩٥ . الزياني محمد بن يوسف ، المصدر السابق ص٢٠٩ مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ص٧٤.

(٣٤) Delpeche , A., « Résumé historique sur le soulévement des derkaoua la province d'Oran, » in R . A . 1837 , p . 44 . Caporal' X., **Oran Capitale de beylick de l,ouest** 1792-1831, Mémoires, pp, 50-51.

(٣٥) محمد بن الامير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، ط.٢ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ١٩٦٤، ص ١١٥.

(٣٦) محمد بن عبد القادر ، نفس المصدر ، ص ١١٥.

(٣٧) استمر حصار مدينة وهران من طرف ابن الشريف حوالي ثمانية اشهر ، انظر :

(٣٨) جوليان ، شارل اندري ، « التدخل المغربي غداة احتلال العاصمة الجزائرية سنة ١٨٣٠ »، ديسمبر ١٩٦٤ ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٦١.

De Jardin, V., « La Commune de dublineau les hachems sous le gouvernement Turcs , » in **Bulletin, S.G.O.,** 1950, p. 45.

(٣٩) Rotalier, Ch., **Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans le Méditerranée,** t. II, Paris 1841, p. 591.

(٤٠) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ص٢٩١.

(٤١) اشار الى هذا الخلاف صاحب التحفة اذ قال : « وفي بعض الايام تكلم بحضرته بما يوجب تاديبه شرعا ، فادبه سيدى الجد بالسياط ..» ص ٢١٥ ، محمد بن الامير عبد القادر ،المصدرالسابق.

(٤٢) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ، ص ٩١.

(٤٣) مسلم بن عبد القادر ، المصدر السابق ٩٨ .
الزياني محمد بن يوسف ، ص٢٢٨.

(٤٤) De grammont, op. cit. P. 364.

(٤٥) Noel, A.H., « Documents, pour servir à l'histoire de hamgan et de la région qu'ils occupent actuellement, » B.S.G.O., 1925, p. 166.

(٤٦) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق من التاريخ المغربي ١٨١٦-١٨٧١ ، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٢ ، الوثيقة الرابعة ، جوان ١٨١٦ ، ص ٢٤٠ .